قصة قصيرة

# الساعات

لطفية الدليمي

منذ الفجر، كانت تتوقع أن يحدث أمر ما، أن تتوقف الساعات التي تنبض في بيتها لسبب لا تدريه بعد، أن تتحول عزلتها الفردوسية إلى استغراق في هموم جديدة. وفي مثل هذه اللحظات التي يبيح فيها المرء لنفسه أن يتوقع، يصبح مؤمناً الى حد كبير بالخوارق والسحر، ليؤكد لنفسه أنه يملك حواس متفوقة، وأنه يعيش المستقبل قبل سواه.. لذلك أصبحت موقنة بأن شيئاً ما يتقدم نحوها.. شيء لا تدريه..

وأرادت ان تنشغل بأمر. هو الآن في فراشه لم يستيقظ بعد، وهي ما اعتادت من قبل ان تنشغل بأمر سواه حينما يكون موجوداً، اما في المرات القليلة والنادرة التي يغيب فيها عن البيت، فانها كانت تخترع لها انشغالات شتى، فاذا لم تنشغل بشيء يصبح الوقت لديها منسوجاً بمتعة انتظارها له، ومشوباً بخوفها الدائم عليه.

منذ عشرين عاماً، عندما بدأت تجمّع معارفها عنه، حفظت زمرة دمه، وتاريخ مولده، وبرجه، ولون عينيه، ونبرات صوته السرية، وتعرفت إلى كلماته التي لم يقلها بعد، وعندما اكتمل شرط المعرفة، بدأت تحبه، أما هو فقد أحبها قبلذاك وتحول لديه الحب من صورة إلى صورة، حالات تتصاعد وتكبر، حالات تخلقها ملامح المعجزة، أن يلتقيا، ويعيشا معاً، وينجبا ابناً، ويعتزلا لفرط خشيتهما من العالم المحيط بهما هذا العالم، الذي أخّر لقاءهما خمسة عشر عاماً كاملة.. وإذ غافلا تدابير الزمن وأنشآ فردوسهما بدأ سعيهما للاستغناء عن كل ما يأتي من خارج هذا الفردوس وصنعا اكتفاءهما وأدهشا الآخرين من الذين عجزوا عن ايجاد حلول لاشكالات حياتهم، وأفزعا الذين استنكروا مشروعهما وحاربوه، أفزعاهم بالنجاح حققاه في مشروع حياة زوجية بنيت على ركام الخسائر والتجارب الفاشلة وضياع العمر لكلا الاثنين.

تسللت الى حيث ينام، وخشيت ان يكتشف فيما لو كان صاحياً هاجس خوفها من هذا الشيء المجهول، نظرت الى وجهه المطمئن في سكون المكان.. وكانت انفاسه الشيء الوحيد الذي يوصلها بتدفق الحياة.. مضى الخوف عنها، وإنبثّ الأمان في جو الغرفة فوضعت يدها بحركة امتنان رضيّة على كف النائم ثم سحبتها برفق وخرجت من الغرفة..

لم تبهت حياتهما، ولم تَرِثّ، بل انها لتتجدد كل يوم، وتحمي نفسها من الاخفاق بالحب، وربما بالعزلة أيضاً. عندما خطت في الممر المضاء المؤدي الى غرفة الجلوس احاطها نبض الساعات التي لا تحصى.. احاطها مثل أغنية ضاجّة، وتلاحق النبض وتواصل حتى شكّل مساحة من الأنغام والايقاعات المتباينة، ولكن الرتيبة الموزونة المتوافقة..

عاودها الخوف من احتمال حدوث أمر ما. على مدى عشرين عاماً ما أخطأ حدسها في شيء، على مدى عشرين عاماً لم يفترقا الا لفترات قصيرة جدا، وعندها كان يصوم عن الفرح حال مغادرته البيت.كان تعلقه بالفردوس الذي اقاماه بالمكابدة والتحديات ونزف المشاعر يبرر خوفه، واعتقاده بأن لا شيء يعادل حقيقة حبهما وعالمهما الخاص الذي ينسجان دقائقه بالتدرب على احترام الحياة..

فاذا اضطر الى القاء نفسه وسط المدينة من أجل حاجاتهما الأساسية، ووجد خطاه تتجه نحو الناس مدفوعة بالرياح، وضجيج الشوارع، تهاجمه رائحة الخبز في الأفران وروائح النهار المكتسح بفعاليات البشر واصوات الآلات وأناشيدالصغار، كان يعجل في انجاز أعماله، يشتري مستلزمات شهر كامل اطعمة وكتبا ومشروبات وساعات جديدة ابتكرها الفنانون المهتمون بالزمن، ويعود اليها محملاً بكل شيء، وكانت هي تخاف وتصاب بالهلع، اذ ينأى عنها، هي التي اعتادت ان تقطع ليلها ونهارها مع صوته ونبضهِ وكلماته.وكان يقول لها عندما يخرج:

ـ إهتمّي بنفسك من أجلنا.

ومرة، لا يعلم لماذا، عرض عليها ان ترافقه لغزو اسواق المدينة: وقال سنشتري أشياء كثيرة، ونتجول بعض الوقت، وقد نتناول غداءنا في مطعم تفضلينه، رفضت، رفضت بإصرار، وقالت: بل سأمكث هنا في انتظارك، وسأعد لك ما تشتهي، وآنجز كتابة جزء من يومياتي المؤجلة..

وضايقه التصاقها الجنوني بالبيت، لكنه غبط نفسه في السر بل وأحس بعد مناقشة الأمر براحة عظيمة، كانت تخشى اذ يخرج الى المدينة أن تفقده او يفقدها، لسبب من تلك الاسباب الحمقاء، كأن تجنّ سيارة عاندت كابحها، او تسقط على احدهما شجرة عند اشتداد الرياح أو يصعق أحدهما تيار كهربائي، أو يرتكب قلب أحدهما الخطأ الأبدي ويتوقف عن النبض.. فيتوقف الكون لدى الآخر مرة واحدة..

اجل كانت تخاف كل ذلك، بعد أن كابدت في بناء حياتها معه وتعرضت لتجربة التخلي عن حياتها الأولى التي بنتها بعيداً عنه. كان هذا ما يخيفها بعد أن اطمأنت الى استحالة تخليه عنها من اجل أي شيء في العالم هي تعرف انه انتزع ـ اذا اكتفى بحبها ـ كل توق البشر الى المكاسب من نفسه والقى بكل الرغاب على غبار الطرقات.

هو الآن نائم، والساعات تواصل نبضها في كل أرجاء البيت، مثلما تفعل جوقة من قلوب بشرية لعشاق رائعين، واذن، فلتعدّ له الفطور، ستتحفه بفطور خاص جداً، وتسخن له الحليب، وتعد شاياً طيباً وتضع له عنقوداً من النرجس الذهبي في كأس صغيرة.

هو الآن نائم، والبيت ممتلىء بضجيج الأصداء، حركة التروس الصغيرة والارقام المتحركة وجزئيات الكوارتز وذبذبات الالكترونات، ونقر رقاصات الساعات القديمة الطرز على هياكل معدنية وسطوح زجاج وصناديق من اللدائن الصلبة.. كل ذلك يحدث ليعلن حركة الزمن.

استيقظ ولحق بها، قبّلها مرتين، مرة للصباح الجديد ومرة من اجل عنقود النرجس الذي كافأته به، تناول فطوره وتحدث عن مشاريع صغيرة وأعمال ينوي القيام بها في محترفه التقني المقام في الحديقة، ورنّ الهاتف، في ساعة الصباح المبكرة كما لم يعتد أن يفعل، واتى عبر المسماع اذ رفعته صوت صديقة لها عبر الاعوام يهتف: نريد ان نراك، كان صوت الصديقة الآتي من الماضي قد استفز هدوءها، فاحتارت فيما ستقوله لها: وكررت الصديقة: بعض الصديقات والاصدقاء يرومون زيارتك ايتها الجاحدة!

وقبل ان تقول شيئاً جاءها الجزم: في العاشرة والنصف سنأتي..

قالت: ولكن..

قال الصوت: حسبك هذا الاعتزال والنفي، نحن قادمون اليك في الاقل نتفرج على مجموعتك من الساعات الغريبة.. الا تقولين نعم؟.

وقالت بصوت بارد منفصل عن كل عواطفها:

ـ سأنتظركم..

وحين أقفلت الخط.. نظفت صوتها من الجفاف بالتحدث اليه، وخلصت جسدها من ارتعاش المفاجأة بأن سرّبت عبر لمس كفه كل خوفها وارتعابها..

قالت: لا بد أن احداً ما أفشى سر سعادتنا او أن فضوليا يعرفنا كشف سر الساعات واهتمامنا بها.. لا بد أن خطأ ما قد حصل مني او منك.

قال: منذ أشهر لم التقِ بأحد من معارفنا القدامى

وقالت: من فتح ثغرة الاختراق إذن؟ وما الذي دعا هؤلاء الى أن يتذكروني هم الذين كفوا عن لقائي بعد محاولات يائسة لأعوام طويلة؟

قال: قد يكون إبننا، دفعه الزهو بأبويه الى البوح..

واستنكرت: لا أصدق: فهو احكم من أن يتورط.

وأصبح نهارهما غريباً وناشزاً في خط ايامهما، وكان لا بد لها أن تعد نفسها لمفاجآت قد تنشأ عن هذه الزيارة.

منذ عشرين عاماً وبعد انطفاء تلك الحروب الموضعية التي اشتعلت هنا وهناك في بلدان كثيرة، اكتشف كثير من الناس وهما من ضمنهم، انه وسط احتمالات فناء الحضارة بالذرة او اشعة ليزر او موت البشرية بالاسلحة الكيماوية والقنابل النيوترونية لا يبقى أمام الانسان سوى أن يتمسك بامتيازه الانساني: أن يؤمن ويحب كل شيء كان يوحي لهما انطلاقاً من هذا بامكانية خلق حالة خاصة وفريدة يتجاوزان بها وضعهما السابق المستسلم لكل فروض المجتمعات القديمة، اختارا بدءاً ان يكونا معاً، فأعلنا رفضهما لكل الارتباطات المشوّهة، واعلنا ببسالة عن مشروع حياتهما، وقد عزا بعض المتابعين هذا النوع من البسالة الى الحرب التي وضعت الناس في مواجهة مصائرهم وموتهم..

وبعد ان انجزا مستلزمات ما اختاراه، عمدا الى العزلة، اذ لم يعد هناك مبرر للاتصال بعد أن تركا العمل، وقدما عبر سنوات طويلة كل ما يملكانه من طاقة الانتاج وقررا في آخر الامر أن يستريحا.. اصبحا عند حافة المدينة لا في قلبها، وكانت المدينة تنمو باتجاه تحقيق مشاريع آملة، وتتجه بأهلها نحو نيل مطالبهم اليومية بشكل عادل وجليل..

شحذت العزلة قدرات الاثنين الروحية، فنمت لهما حواس جديدة تنبىء عن روائح البارود والمتفجرات كما تنبىء عن احتمال هبوب الرياح وسقوط المطر، واصبحا يعرفان عن بؤس العالم البعيد بفضل طاقاتهما الروحية أفضل مما لو واصلا العيش وسط ضجيج المدينة. أمدّهما التأمل بالرؤى، والحب بالغبطة والحرب بالوعي، والمكابدة بالصلابة، والمجاعات بالزهد وأزمنة الخسائر بالقناعة.

ظل رنين الهاتف يتضاعف في سمعه، ويتردد الصدى متكسراً وتجسّد صوت الصديقة بنبرات حادة وفضولية ومعادية...

قالت: لا بد أنها الساعات ولا شيء غيرها. ردّ بصوت حاسم: هذا سيضطرني الى اعادة النظر في كثير من أمور حياتنا..

قالت: هل اصبحت الساعات شراً كلها؟..

قال: لا أستبعد انها استدرجتهم للاقتحام.

فقالت له: يبدو أننا لا بد مقبلون على اختيار موقف ما من كل هذا.

وقال: خيراً: وقد يتطلب الأمر مجابهة أو حسمًا من نوع ما تمليه الظروف التي ستجدّ بعد حصول الاقتحام..

* * *

أصبحت حدود عالمها عرضة للاجتياح، وهاهما يصبحان هدفاً لمكائد الاخرين وتأكد له امر واحد مهم: أن الاصطدام بالعالم الخارجي قد اصبح محتمًا مهما كان حجم هذا الاصطدام..

عجب من أمرها: لماذا لم تعتذر لهم بطريقة حازمة؟ أكانت تريد أن تريهم امتياز حياتها؟.. أكانت ولوعة بهذا القدر بأن تباهي الآخرين بأشيائها المجيدة؟.. هل نشأت لديها حاجة للاتصال بالخارج منذ زمن وخشيت البوح بها وانتظرت لكي يبادر الآخرون؟.. واذا كان الامر كذلك، فهل أنه كان قابلاً للخداع الى هذا الحد؟.. ما الذي تبغي في ذلك العالم لكي ترجوه منه بعد اقتناعها بالابتعاد عنه؟.. ولكي يحسم هذه الوساوس والاسئلة التي تقود الى ابتداع الشكوك قال:

ـ سأخرج الى المدينة وأدعك مع هؤلاء القادمين من الماضي.

وقالت: لكنه ليس موعدك المعتاد.

وقال: لا بأس، عليّ أن افعل شيئاً غير مجالسة هؤلاء الاصدقاء الذين تعرفينهم اكثر من معرفتي بهم.

ظنت انه لا يريد تكدير نفسه بلقائه بهم، وأنه يريد تجنيب نفسه نتائج لا يسيغها.. وبالرغم من تفسيراتها عزّ عليها ان يتركها بين من اصبحوا في عداد الغرباء، أولئك الذين لم يبق منهم غير هلام الذكريات.

ايقظ موقفه هذا ريبتها بهم... وأخافها أمر جاد: انها لا تعرف عن الآتين شيئاً، وتجهل ما آلوا اليه وهي التي ترى في الانسان ما أصبحه وليس ما كانه، فكيف ستتحدث اليهم وهي قد قطعت شوطاً بعيداً في الاغتراب عما ألفوه واتخذت لها مواقف مختلفة جديدة من امور الحياة كلها؟

* * *

سيذهب الآن ويتركها مع الساعات التي بدأت تخيفها، وتغيّرت علاقتها بها من التعلق الناعم الفطن الى التوجس والعداء الخفي.

سيتركها وحيدة تواجه اجتياح الماضي لفردوسها الذي تفتديه، وستواجه وحدها كل الغضون والتجاعيد التي ارتسمت على الوجوه والأكف، وحدها ستكتشف احزانهم وتحولاتهم ان كانت هناك تحولات، وخسائرهم الأكيدة، وبالمقابل ستكون وحدها الأقل تأثراً بالزمن والاكثر احتفاظاً بنسغ الحياة، ليس لسبب يتعلق بالوراثة بل بسبب وعيها لضرورة الامتداد في المستقبل.

سيرى فيها هؤلاء الاصدقاء تلك العاصية على منطق الزمن، المتمردة على فاعليته، رغم انها محاطة بالساعات التي تذكّرها كل لحظة بانقضاء دقائقه.

قد تتساءل النساء، وهي أدرى بفضولهن، عن سر نضارتها رغم ما بلغته من العمر، ستعلن لهن بأنها اعادت معه اكتشاف الايمان بالقوى العظيمة التي أهملها الناس وبالحب الذي شوّهه عدم اكتراثهم وقلة احترامهم له، وبالاثنين معاً الايمان والحب، صانت نفسها من التلف وجسدها من الشيخوخة.

قد يندم بعضهم لانه انشغل بيوميات زائلة، وبتحصيل المكاسب، مما أبعده عن حقيقة التعلق بالأشياء العظيمة، ووعي الجمال وتقدير الحياة، وستجرؤ هي على تعذيبهم قليلاً، وتدهشهم وتبلبلهم، وتقلق أرواحهم التي نسيت عبر امتداد الزمن مجد الايمان وسر المحبة.. وسيفضي بهم لقاؤها الى مراجعات يائسة بعد أن فات أوان الفعل بالنسبة لهم، واكثر الظن أنهم لن يصفحوا عنها، لانها فجرت الأحزان والندم وكشفت لهم عن فداحة خسائرهم..

لم يأتوا بعد، ولم يخرج هو. والتوقعات والأفكار ترهقها، والساعات تواصل حصارها فترى البيت ضيقاً والجدران محدّبة ومتجهة نحوها. وفجأة رأته واقفاً أمامها،ولا بد أنه كان واقفاً منذ وقت طويل، وأربكها الأمر،وعندما لمست توهّج عاطفته نحوها يشعّ من تحت قناع الحزم الذي الزم نفسه به منذ حديثهما اطمأنت وتأكدت من سلطانحجتهاعليه.

قالت: وددت يا حبيبي ان لا تتركني لهم.

وقال بود: من حين لآخر،علينا اختبار صلابتنا.

فقالت له: هل تنوي ان تزجني في التجربة؟

قال: اثبتي لهم أنك عصيّة على الاستجابة لنداء الخارج..

وقالت له: بل تريد أن أُثبت لك.. حسناً لك ذلك..

كانت تعتقد ان مثل هذا الخوف قد فات اوانه، فليس له ان يكون مهدداً بمثل هذا الخوف بعد هذا العمر الذي عاشاه معاً.

استدارت عنه نحو ممر الساعات تلجم بكاءً كاد يتفجر، وصيحة استنكار كادت تفلت منها.وفجأة قررت ان تتماسك، وقالت له:

ـ لأجل ان تتأكد من صلابتي، عليك أن لا تبارح بيتنا، إبقَ معي..

فتح الباب وقال: وداعاً يا حبيبتي، حافظي على نفسك من أجلي.. وخفق قلبها، وأحبته اكثر، وخفق قلبها، وسقطت المخاوف كلها،ورأت الشمس الرائعة تتوهج في الفجوات بين غصون الشجر، وبدا هو غارقاً في النور مزدهراً بالحياة رغم كل تلك الاعوام التي يحملها.. وعَزت وساوسه ونقاشاته المحتدمة الى حرصه الدائم على صفاء النموذج الذي اختاراه لعيشهما، نموذج العاشقين المكتفيين بذاتهما.

واذ أغلقت الباب دقّت ساعة الممر، وتبعتها بثوان ساعة اخرى، وتساءلت، هل كان تعلقهما بمباهج الحياة وحقائقها مبرراً لاهتمامهما بقياس الزمن؟ ام ان فداحة الخسائر القديمة دفعتهما الى ذلك؟..

مهما كان السبب فانهما كانا مذ عاشا في هذا البيت يعلقان اهمية على كل دقيقة من دقائق الزمن، حتى أدى اليهما الأمر الى الولع بالساعات، فكانا يضيفان كل جديد منها الى مجموعتهما على مر الأيام، فهنا عند الباب، وقرب السلم وجوار الفراش وفوق المناضد والى جانب المرايا وفي الحمام وعلى رفوف المكتبات كانت الساعات تحيا ككائنات حية، تنبض وتؤكد وجودها حولهما، يعنيان بها ويتابعانها، وتشغلهما عن كثير من الهموم الطارئة التي قد تقتحم أفق الفردوس الصغير، ويطردان بواسطتها، او هكذا يخيل لهما ـ كل الشرور.

ساعات باشكال شتى، تماثيل مستقبلية، مخلوقات آتية من عوالم مجهولة، كرات لامعة، اشكال هندسية مضيئة، ساعة صنعت على هيئة مجرة سماوية ذات نجوم مشتعلة تشع بالنور، وتعلن الوقت، اشكال غريبة لا اسماء لها، حتى ساعات الكوكو المبهجة التي اصبحت تعمل بالطاقة الشمسية، ساعات تدور حولها الابراج الاثنا عشر حسب مواقعها الفلكية، ساعات شفافة وناطقة ومشعة. ساعات.. ساعات.. هما يعيشان في كوكب صغير مادّته الزمن يدوران فيه من الشروق الى الغروب ولا يبرحانه، غذاؤهما المحبة، فهل تكتفي النفس بهذا؟.. هل يمكن للمحبة أن تحافظ على روحها بعيداً عن حركة العالم؟.. كانت تتساءل وتدفعه الى الخوف منها، هو يقول: أجل ان ما صنعناه يكفينا، حتى هذه اللحظة لم يساورها أي ريب بما يقول، بل بما تمنحها هذه الحياة الفريدة من حفاظ على قيم تقدسها ومرتمرضت.هي تذكر كيف حدث ذلك، كانت قد تعرضت لنوبة نفسية حادة، واصبح كل شيء يقلقها ويثير عواطفها، الاصوات كلها، نبض الساعات والموسيقى، ووقع خطو رجلها وابنها في ارجاء البيت، أوقف كل الساعات وبطن البيت بمواد عازلة، ومنحها كل ما يستطيعه من اهتمام المحب والعاشق والرفيق، وسألته في صفوها بعدئذٍ:

ـ ما جدوى الاحتفاظ بكل هذه الساعات؟

وقال لها: اظنني لست بحاجة الى تكرار الجواب الذي سمعته مني مراراً.. سيدتي لكي لا نغفل عن حركة الزمن، لكي نحيا كل لحظة تولد، ولا نفرط بها.. ونتذكر دائمًا.. دائمًا أنه يمضي ويضيع، والآتي من الغد لا يزال ملكنا..

وتضحك إذ تجد نفسها وهي معه في اختراقهما الزمن ضمن الحب. لا تستجيب لنبض الساعات ولا تسمعه وتعجز كل الساعات عن انتزاعهما من خلود الزمن المتوقف لديهما، فيضيع نبض الساعات في نبض الكون.

اعلنت الساعة المجرة بشراراتها المشعة عن تاريخ ذلك اليوم، فاذا هو الثالث عشر من آذار ١٩٩٨.. واذن هي الآن على تخوم قرن جديد، عامان آخران يمضيانهما معاً وتفتح الدنيا ملف القرن الحادي والعشرين، ويتقدم بهما العمر نحو النهاية، ويأخذهما الزمن نحو المستقبل وتواصل البشرية نضالها ومحباتها وتحرياتها او استسلامها وتمردها بينما هي تمضي نحو المستقبل الذي يقود آخر الامر الى نقطة الموت..

نوافذ البيت مشرعة للشمس، وموجات الرياح تمر مثقلة بأشذاء طلع وروائح زهور عملاقة تفتحت بالوان ساطعة على قامات الشجر الاستوائي، ذلك الشجر الذي تتوهج خضرته تحت الشمس وتبدو اوراقه النضرة العريضة مثل صفائح خضراء لامعة. لا يؤثر فيها تقلب الاجواء بعد أن كُيّفت لتقاوم الثلج والحر والرياح وغبار الصحارى، وأصبحت تعطي ثمارها ـ بعد اجراء عشرات التجارب عليها ـ على مدار العام. انتشرت خضرة الغابات حول البيوت لتوازن حضارة المدن مع الطبيعة، كتل الاسمنت والحديد مع النسغ الاخضر الحي والغصون اللدنة التي تتحسس حتى عواطف الانسان وأصوات المخلوقات..

ما أسرع تغيّر الدنيا!؟.. وحدهما لن يتغيرا في الحب، المدينة كلها تغيرت، واصبحت اساليب العيش فيها مستحدثة وتقلصت اوقات العمل وارتفعت الاجور، وتخلصت البلاد من كثير من الازمات. واصبحت الادارات تهتم بمطالب الناس وتوفرها.. فنشأ عن ذلك فائض من الوقت والمال، وعمّ الترف وانشغل الأغلبية بالبحث عن اللهو، وليس المباهج وعن وسائل قتل الوقت وليس استثماره، وأصبح علم التغذية التسعيني اساساً يُعتمد في تنفيذ برامج التربية والعلاج وبناء شخصية الانسان، واعتُمدت العلوم الاخرى بشكل أقل..

أحياناً كانت تأسف من اجل حياتهما السابقة، التي حُرما فيها من كل هذه المعطيات.. غير أن الأسف لديها سرعان ما يتحول الى زهو وافتخار من اجل ابنهما الذي بلغ الخامسة عشرة واختير بعد اعداد طويل ليتدرب في احد المختبرات المركزية على النحت بواسطة الاشعاع، هي تباهي به اباه، وترى فيه النموذج الجدير بتحقيق كل الامنيات التي احبطت، هو الذي لا يعرف الخوف، ويعتز بحريته في التعبير عما يفكر فيه او يحسه او يرغبه دون تهيب، هي تغبطه دوما لانه نخلص مع ابناء جيله من معظم نقائص الاجيال السابقة التي نمت بعشوائية خارج أطر العلم والمبادىء، وكان هذا التميز عزاءً للاباء ومصدر سعادة وخوف في الوقت نفسه.

كان يقول لها ولأبيه: لماذا يحدث ذلك لكما؟؟.. كان يحتج على اعتزالهما الدنيا، ويرى في ذلك بطراً لا يليق بمن يحب البشر في الوقت الذي يحرضه ابوه على صنع مأثرة شخصية عن طريق انجاز أمر رائع، وكان يحقنه بالتحدي ويضخ في روحه شرارات الالهام. أما أمه فقد كانت تشير الى ان ابنها يصلح للتأمل والاستنتاج والابتكار الرصين، اكثر مما يصلح للتحدي، وتعارض رغبة الأب في تعليمه فنون المجابهة والدفاع، وقال لها الأب بشأن هذا: هنالك منابع للخطر لم تنضب بعد، هناك شرور كثيرة ما تزال تحيط بنا.. ربما هي تقبع في اجزاء بعيدة عن أرضنا لكنها موجودة على اية حال، وهذه الاخطار لن ينفع في مجابهتها حين تغزونا لا تأمل الحكماء ولا ابتكار المبدعين..

كان هذا مصدر تشوّش مهما الوحيد، الآتي من الخارج من اماكن لا سطوة لهما عليها، أخطار لا تعنيهما وحدهما بل تهدد كل الحضارة والناس، ومن هنا كانت ترى في البعيد ظلمة ما، واشياء خفية تظهر وتزول، وكانت هذه الرؤى تضرب جدار العزلة وتغوص بين احجاره وتحيلها الى المخاوف وتنتفض او تستعيد قدرة ايمانها وتتمسك بصيغة حياتهما وتطمئن..

لم تكن عزلتهما تامة ومكتملة فان لهما قناة اتصال حية بالعالم الخارجي، هذا الفتى الذي يربطهما بالدنيا، وما سواه من وسائل الاتصال ألغي منذ ازمنة بعيدة، كانت الانباء تجري عبره وعلى وجهه وتكوينه الجسدي كانت التحولات تجري وتستمر، كان ينمو في الخارج بين البشر، ومثلهم، وكانا يرقبان هذا ويتابعانه كل اسبوع عندما يعود اليهما في اجازته الاسبوعية محملاً برائحة الدنيا، مزوداً بقدرات جديدة وطاقة جيدة على تبادل العواطف والآراء، وتكيّف للقبول او الرفض، يمتلىء سمعه باحاديث الناس وضجة المكائن

واصوات الطيور في منتزهات المدينة، وتحتفظ عيناه ببهجة الوان الحياة المتدفقة عبر المسالك والانهار والسماوات، عبر الحركة كلها، وحالما يرى والديه ينفض لديهما كل الاثقال التي أتى بها، الانباء والافراح الصغيرة واسرار القلب، تعلّقه بزميلة له، ، وتفوقه في استخدام تقنيات جديدة في النحت، وكان كل مرة يحضر لهما عينات من العالم الخارجي، ثماراً جديدة مستنبطة توصّل اليها علماء الزراعة وامتلأت بها الاسواق، شرائح من لدائن شفافة صغيرة بحجم علب الكبريت تختزن الذبذبات وتتحول بلمسة صغيرة الى شلال من الموسيقى، واستمر الفتى يضخّ دماء العالم الجديدة الى البيت الذي اكتفى بعزلته، وكان أبواه يستقبلان هذه الأشياء بحذر ولا يدهشان لأي جديد يشغل عالم الخارج، وترفض الأم باصرار بعض مقترحات الفتى لكسر جدار العزلة، فيقول الفتى:

ـ أمي.. كان الاجدر بمراكز التربية ان تعتني بجيلكم اكثر مما تعتني بنا، فنحن لا نسبب اشكالات كالتي تسببونها، اننا نملك وجهات نظرنا، اجل ولكننا نحترم حتى الافكار التي نرفضها، لماذا الخوف؟ لماذا ترفضون كل شيء لا ينتمي الى معرفتكم وأساليبكم؟..

تقول له: هنا الاختلاف.. نحن نشأنا بصورة مغايرة.. ولا يمكن أن نتغير بهذا الاتجاه في قضايا تخص علاقتنا بالآخرين، وتخال الام نفسها موضوعة في احد مراكز التربية التي تحدث عنها ابنها، حيث يؤخذ الاطفال في سن السابعة ويخضعون لاختبارات متفوقة، ويعدّون حسب قدراتهم لكل الاحتمالات الممكنة، فمن يتوسم فيهم العلماء والخبراء نبوغاً في قيادة الجماعات يخضعونه لنظام نفسي وغذائي خاص وتقدم لهم اغذية مكيفة ترفع قدرة الاداء الجسدي وتنمي التفكير وقدرة التحليل، وسرعة المبادرة وتصلب الارادة وتوازن العواطف، اما الذين يتوقع نبوغهم في الفن والآداب، فيطعمون اغذية خاصة تتكون من عسل النحل وأجنّة القمح وزيت كبد طيور الماء وعصير زهرة الآلام..

واتسعت ابتسامتها وسرحت عيناها في الفراغ وهي تتصور نفسها قد اصيبت بردة فعل مثل بعض الاطفال الذين يرفضون تقبل الغذاء المقنن ويتكرر هربهم ثم يعادون في آخر الأمر الى بيت الاسرة ويحرمون اذا كانوا ذوي مواهب فنية من حق التعلم في المختبرات الحديثة، وعندئذٍ تتولى الأسر تدريبهم على مهن يدوية غير متطورة كالرسم بالزيت والنسج بالأنوال، والنحت بالازاميل والعزف على آلات ذات اوتار كنوع من البدائل المفضية الى نتائج مرضية، وفي المقابل كان الرسم يتم في المختبرات اعتماداً على معطيات علمية في الفيزياء والكيمياء والرياضيات، ويتم النحت باستعمال أقلام تطلق اشعة ليزر بمقادير موجهة نحو حجر الرخام والبازلت والديوريت بالشكل الذي يستهوي النحّات...

عادت الأم من استغراقها، واطمأنت إذ هي تجاوزت عمر الانتماء الى تلك المختبرات وطوعت حياتها وفق ما يحمي وجودهما المشترك. بعد قليل سيأتي الاصدقاء، وسيدهش سكان الحي لرؤية يتهم يقتحمون عزلة البيت، لكنهم لن يفكروا بهم على نحو سيء، فما عاد الناس يحفلون الا بما هو أساسي، وجدير بالاهتمام حقاً.

شمت رائحة احتراق شيء ما، وفكرت: هل سيهب الناس لنجدتنا ان شب حريق في البيت؟.. لا بد أنهم سيفعلون ذلك، فما من أحد يستطيع الاستمرار في لا مبالاته ازاء كارثة تحدث امامه.. سيفعلون ولكن دونما عواطف زائدة، ولكن ما بالهم لا يكترثون بشيء من تلك المحن التي تصيب انحاء كثيرة من العالم، ولا يثيرهم اي نبأ؟.. اتراهم اصبحوا محصّنين ضد سيولة العواطف؟.. اهذا هو سبب انصراف المثقفين منهم الى التأمل والصمت؟... لا شيء حولها يربطها بالخارج، لا جهاز للتلفزيون أو جهاز راديو، لقد استغنى كثير من الناس عنهما واقتصر استعمال التلفزة في كثير من الحالات على الرقابة وبث المحاضرات في مراكز التدريب، وفي رصد عمليات الانتاج وتنظيم فعاليات سكان المدن وتوجيهها. اجل، ان ذلك كان ضرورياً للتخلص من ضجيج إستمر قرناً من الزمان.. ولكن من يستثمر الصمت؟ قليل من البشر «أنا وهو لم نعد نهتم الا بما يخصنا» ضجّت الساعات، وأصبح البيت مضطرباً. لقد تأخر الاصدقاء ساعة.. سيأتون، وربما أعاقهم الزحام، ولكن هل أرشدتهم الى البيت؟ لا بد انهم يعرفون، انهم في الخارج والمعلومات ميسرة لهم، أما هي فلم تعد تحصل الا على معلومات شحيحة عما يحيط بها.. هل كانت هذه النتيجة ضرورية، وهل اثمرت العزلة؟.. ما معنى أن تواصل العزلة في بيت مكتظ بأصوات الزمن؟.. آه لقد ضاع وقت ثمين كان مخصصاً لكتابة يومياتها.. ولكن اية يوميات؟! ان نهاراتها أضحت متشابهة، متساوية مثل سطور ورقة بيضاء.. لن تكتب شيئاً بعد اليوم.. غصّت في إجهاشة مرّة.

لقد تركها في البيت وذهب ينفق ساعات في المدينة، تركها من أجل وهم، من أجل افتراضات قد لا تصدق، لماذا تخشى هؤلاء؟.. ما الذي ترجوه من المستقبل بعد هذه العزلة؟.. الابن؟.. هل يغني عن كل احتياجات النفس؟.. لقد ذهب يتجول في المدينة، لا بد أنه حانق على أصدقائها، كلا ما كان له ان يذهب، كان عليها ان تقنعه بالبقاء ليستقبلا هؤلاء الناس، ما الذي حلّ به الآن.. أهو ضجر؟ أهو وحيد؟.. هل ظن ان في الأمر تواطؤاً ما؟.. مؤامرة صغيرة؟ يا للعزلة كم تخلق من اوهام الخوف، كم تكون بارعة في ابتداع الهواجس!.. ولكن لماذا يجيئون الآن؟ هل انهم حقيقة يرومون رؤيتها؟.. أم ان هناك دوافع خفية؟ مهما يكن من امر، عليها ان تحسن استقبالهم، منذ أعوام بعيدة لم يعد أحد يطرق بابها... كم هي مشوقة الآن لسماع حكايا حبهم، والتعرف الى تطورات حياتهم..

التهذيد، هل هو حقيقة، ولكن لماذا يهددها من كان يمحضها الود. .؟. . كلا انها لا تريد ان تكون حياتها مباحة لفضول من كانوا في يوم ما أصدقاءها، لقد منحا من شبابهما الكثير في العمل، ومن حقهما على الدنيا أن ينعما بالراحة التي يختاران اسلوبها. . هل تراهما أخطآ!؟ لا بأس، هذا ليس أوانه، انهما في سعادة اكيدة، فما الذي يخشيان منه؟. . هل اضحت سعادتهما هشة ورخصة الى حد التأثر من زيارة عابرة؟. . كان عليها ان ترحب بالاصدقاء، وتمنعه من الهروب، . . ولكن لا بأس،ربما ستتاح لها الفرصة لاصلاح الامر لو عاد قبل حضورهم. .

ابنها ايضاً كان يلومها، كان يحرضها على اختراق عزلتها بينما يحرض الاب على التحدي. . قال لها يوماً:

ـ أمي سأصطحبك الى حيث أتدرّب، سترين منحوتاتي الرائعة، وأعمالي كلها، ستفخرين بي. .

قالت له: يمكنك ان تصور أعمالك فأتفرج على صورها.

وقال بمرارة: كل الامهات يأتين الى هناك. .

وردت بحسم: أنت لست طفلاً بعد، ولن تستطيع ارغامي على فعل شيء لا أريده.

واحتقنت عيناه وقال: أمي. . اني ارجوك ولا حقّ لي في ارغامك. .

ولانت قليلاً: لن يختلف الأمر، بامكانك أن تأتيني بفلم عن اعمالك. . انت تعلم عزو في عن الخروج الى عالم المدينة ولا أرى في ذلك سبباً منطقياً يجعلني اتخلى عن قراراتي. . صدمته قسوتها، هل تحوّل القسوة هذه الأم الرائعة الى جدار شديد الصلابة، هل نجحت العزلة في تغيير مكوّنات روحها؟. . اضطرب الفتى، وقال: لا بد أن يحدث شيء. . لا بد أن يحدث. .

استمرت واقفة تنظر الى الشارع عبر النافذة، واحرجها هذا الانتظار وأخذ يسوط روحها بهاجس التخلص من الوحدة، لا بد لها ان تنشغل بشيء، أثارت فضولها خزانة قديمة تحفظ فيها بعض الأسرار: احداث تحولت الى آثار للحفظ، فتحت الخزانة، فعثرت على لقىً فريدة اكتسبت قيمة الأثر لفرادتها وقدمها، ووجدت رسائل تعتز بها وأشعاراً كان يكتبها لها وتذكارات من اسفارهما الى انحاء الدنيا، ورقة عليها حكمة راهب ياباني، ثمرة صنوبر من شجرة في دير لبناني، عيدان بخور من مسجد آسيوي، محارات من شاطىء جزيرة مدارية، اشياء كثيرة تحفظ لها تفاصيل اسفارهما، وبين ذلك كله وجدت بضع اوراق عتيقة مزدحمة بكلمات كتبها منذ اعوام عديدة.

قرأت.

١٩٧٨/١٢/٣١

**الساعة الأولى:**

جاءتني صديقتي «امل». سأحاول ان أزيل بقع الأسى بمحلول الفرح اذا انت اتيت أيضاً. . اعرف استحالة ذلك. . ستبقى بقع الحزن على رسغيّ وكاحليّ آثار قيود لا تمحى، لن اخرج الى ملكوت الفرح والحرية، قلت لأمل: أعيدي وضع الاقفال على باب بيتي، وامنحيني راحة النوم. .

**الساعة الخامسة:**

افكر في استعمال دمي للكتابة اليك طلباً للخلود معك وأخشى أن اذهب في الموت بعد فصد دمي. . قالت أمل: أنت حمقاء حقيقية.

**الساعة العاشرة:**

في انتظار حدوث شيء، افكك اجزاء الساعة والتهمها دقيقة دقيقة، مثل وحش جائع: ذهبت أمل وتركتني لوحدتي. . بودي ان اكون بين الآف الناس.

**الساعة الثانية عشرة:**

مليار من البشر يقبّلون بعضهم، انت لا تأتي، وانا لا أذهب اليك. . . يستشهد العام بين طلقات المحاربين وجوع الجياع وفرح العشاق وعناقهم، شرب بعض الناس من أجل موت عام، وتفتقت الليلة الجديدة عن وجه طفل بهي، أخذت الطفل وهربته، لاحقني خطوهم: السكارى وذوي الفضول وغيرهم، لاحقتني رصاصهم يطلبون طفلي، عندما حاذيت الفجر، اودعت الطفل لديه، وجعلتهم يتبعون أثري وضللتهم عنه.

**الساعة صفر:**

وحدي، وأمل تنام في دفء بيتها، امسكت بحجر صغير «لن يمنعني أحد» طحنت ساعتي هشمتها واخذت اتفرج على حطامها، وعندما لحقوا بي. . .

لم تتم قراءة الاوراق، انما ذهبت الى ممر الساعات في البيت. . نظرت الى وجهها في المرآة. . كانت قد شحبت كثيراً وامتلأت عيناها بالأسى. . في ذلك الزمن كانت تهجو عزلتها، فكيف اختارت آخر الأمر ما كانت تهجوه؟. . . . الساعة الحادية عشرة، بدأت الساعات تدق، ما جدوى معرفة الزمن اذا لم يحدث شيء استثنائي، الدقائق تشبه بعضها، . . . ما جدوى أن تدق الساعات؟ الفراغ. . . يتبع الفراغ. . لا صوت انسان يملؤه. . لا نبض بشري. . الساعات: هذه الاشكال التي كانت مثيرة للفضول، هذه الهياكل التي حفظت أصغر تفاصيلها ونقوشها والوانها. . ما الذي ستقدمه لها بعد؟. . هو لن يأتي والاصدقاء لم يهتدوا الى البيت، قد يأتون. . ما قيمة أن تنتظر أمراً لا

يحدث؟ وجه أمل كان يبتسم لها بين وجوههم، ولا بد انها قد كبرت وذبلت قليلا، امل.. سترشدهم، انها تعرف البيت جيدا، .. ستفرح بها.. ستعانقها وستذرف دموعا.. وسيحدث عتاب رقيق، هي لا تطيق نبرة العتب في اصوات البشر.. الساعات تدق.. وهم لم يطرقوا الباب بعد.. سيرتجف قلبها حين تراهم، النساء والرجال على حد سواء.. سيذكرونها بالزمن كثيراً، .. هي التي لا تريد أن تستسلم للتذكر... لن تقاوم... ستحكي لهم عنه.. ستكون رقيقة مع أمل التي تحبها.. ستقول لها عاودي المجيء.. كلا، ربما كان ذلك لا يعجبه،... لكنه سيحترم رغبتها .. هو يحبها، اكثر من الجميع وأفضل من الجميع، ولا يريد ان يقسو.. كم سيكون الأمر رائعاً لو اجتمع بهم،.. «أمل، ليلة العام الجديد، تحطيم ساعتي.. كان لا يستطيع المجيء... وكنت لا أطيق وحدتي.. اصاب بالجنون.. العالم ليس سيئاً بالقدر الذي يخيفني..».

الساعات تدق، عاصرتها أعواماً، حفظت أصواتها، فما الذي منحتها اياه هذه الآلات الضاجّة؟ عادت الى غرفتها.. سترتدي ثوبا ذا الوان بهيجة، وتنسق شعرها بأسلوب مرح وتكون مضيفة حقيقية، منذ زمن لم تعد تحفل بهذا الأمر.. سيدهش لتحولها،... فكت أزرار ثوبها المنزلي وانتزعت الدبابيس من شعرها المعقوص الى وراء فتهدل على كتفيها مرناً.. حيوياً شديد الكثافة، أنزلت الثوب عن جسدها، فدقت الساعات مرة أخرى، استفزها ذلك، تحركت وتعثرت، استندت الى خزانة الثياب، دقت ساعة أخرى، ركضت حافية نحو الساعة الضاجة، انتزعتها من مكانها ورمتها نحو الارض فتهشمت، عادت وارتدت الثوب ومررت في شعرها فرشاة ناعمة، وانعشت نفسها بعطر خفيف، عادت الساعات الاخرى تدق، ساعات متأخرة قليلاً، ابتهجت لوجهها المنتشي بالتحول، ابتسمت، وواصلت الساعات ضجيجها، أسرعت نحوها.. انتزعتها جميعها وألقتها بلا رحمة فوق صلابة الأرض.. وهرعت نحو ارجاء البيت كلها تحمل ساعات اخرى وتكومها حطاماً فوق حطام.

كان ثوبها الرقيق يمنح قوامها هيأة شجرة الحور، وكانت يداها بأصابعهما الرقيقة تشبه اغصان تلك الشجرة المشيقة المتوحدة،.. نبضت الساعات واضطربت وانفلتت نوابض بعضها، ثم كفت بعد قليل اذ تدحرجت ولم تهشمها. كفت تماما عن النبض وسكتت، وتسلل اليها عبر النافذة صوت طائر يشدو، وحفيف اشجار تستلم لاجتياح الريح، وسمعت نبض قلبها واضحا ومتسارعا عندما أتاها في جلال الهدوء وقع خطاه يجتاز الممرات اليها.. وازداد خفق قلبها، اذ سمعت وقع خطى تتبعه.. ومن النافذة رأت وجوهاً كان اقربها وجه أمل.. وجوه لوحتها الشمس والرياح، وغزتها التجاعيد واكتمل نضجها، وسمعت صوته يناديها، فأسرعت خفيفة الخطا نحو الباب.

بغداد

# السندباد في الألزاس

## محمد علي الرباوي

إلى أبي في أرض الغربة

ها أنتَ تُوَدِّعُ وَجْدَةَ .. تَتْرُكُها تَتَثاءبُ عند طلوعِ الغبش الساقطِ من تَنْهيدَةِ إِيسْلي التائه .. تَتْرُكُ بَوّابَتها خَلْفَك ، يَتَفَجَّرُ ظِلُّكَ قُدّامَك .. يَركلُ طَنْجَةَ بحَوافِره ، يلحس في رَفَّة عَيْنٍ أحجارَ **الْأَلْزَاس** ، وَزادُكَ في الرحلةِ عضلاتُك ... إنّا صَدَّرْناك مع اللّيمونِ وَقُلْنا نَحْنُ كَسَبْنا **الأَلْزاسَ** وما يحزن هذا الألزاس .

- . -

هذا الوطن الضائع ، والغارق في عرصات الجوع وفي مَزْرَعَةِ العطش آلشّاردِ يَسْتَوْرِدُ لَحْمَ الضَّأن العالي ، يَرْفُض إيمانَكَ ، يَرْفُضُ حتى عضلاتك ، يَدْفَعُها ثَمَناً للحم المُسْتَوْرَد .

يسرق أَنْفي الأَفْطَسُ من هذا اللحم المستورد رائِحَةً أَشْعُرُ أَنّ جَداولها نبعت من جَسَدي المتهالك.. أَسْمَعُها في الليل تَقُصُّ عليَّ غريبَ القَصَصِ المكتوبة -يا أَبَتي- بشقائق كانت تُزْهِرُ في عضلاتك.

- . -

لُغَتي ، هل تَعْرِفُها يا أَبَتي ، هل تَتَكَلَّمها في **الألزاس** مع **الألزاس** وهل تَسْمعها في الطرقات وفي أوراش الخوف ؟

- . -

إنّي ألمح قافلةً عائدةً تَتَوَسَّطُها أنت على صَهْوَةِ ناقَتِكَ الواسعةِ العينين سُعالُكَ يَنْشُرُ جَدْوَلَهُ في بعض شوارع **وجده**

آهٍ .. هل تحلم يا أبتي بالعوده ؟

هل تحلم يا أبتي بالعوده ؟

**وجدة (المغرب)**

**هوامش :**

**الألزاس** :Alsace إقليم فرنسي يوجد في شرق فرنسا عاصمته Strasbourg

**وجدة** : مدينة مغربية توجد شرق المغرب قريبة من الحدود الجزائرية المغربية

**ايسلي**: Isly -نهر صغير ، قريب من وجدة ، وقعت فيه معركة بين الجيش المغربي والجيش الفرنسي ، انهزم المغرب في هذه المعركة وهذا الانهزام كان سببا في احتلال فرنسا المغرب وفرض الحماية عليه . ومعركة «وادي إيسلي» سببها ان الجيش المغربي بُعث به من فاس لنجدة الامير عبد القادر الجزائري .

**طنجة** : مدينة مغربية معروفة على البحر الابيض المتوسط والمحيط الاطلسي . منها يُبحر معظم المهاجرين المغاربة إلى فرنسا .